

عالمية الخط العربي

معصوم محمد خلف

يجتبر الخط العربي من أجمل فنون العرب والمسلمين، فالكتابة العربية التي تتميز بحروف طيعة ولينة في عاملها مع الخطاط، هي بالطبع طبيعية في تعاملها مع الشعوب التي اتخذت من أشكال الكتابة العربية منهجاً ثقافياً لها. والذي عزز ذلك اتخاذها الإسلام ديناً تهتدي به.

فهو الانطلاقة الأولى للمسلمين الأوائل الذين فتحوا البلاد والأمصار، ينشرون الدين الإسلامي الحنيف في كل بقاع الأرض ومعهم لغتهم العربية السامية التي تمكنت من زرع جذور الإبداع والخصوصية لهذه الرسالة الخالدة. ففضت على كثير من اللغات وحلت محلها وأصبحت هي اللغة الرئيسية التي استخدمها أهل البلاد الأصليون، فكتب بها الإيرانيون والسلجقة والعثمانيون والأكراد والطاجيك والأوزبك وأهل بلاد الحبشة وكشمير وغيرهم.

وإن مجموع حركة الخط وما يتولد عنها من إشعاع موسيقي مطابق لشاعرية ساعية نحو اللامرني كل ذلك يحدد إيقاع النص بالنسبة ليد الخطاط المبدعة.

وقد استطاع هذا الفن أن يملك قيمة جمالية وتشكيلية عالية، إضافة إلى كونه قيمة تعبيرية. وهذا ما رمى إليه "الصولي" عندما قال: ومن فضل حسن الخط أن يدعو الناظر إليه إلى أن يقرأ وإن اشتمل على لفظ مرذول ومعنى مجهول.

وهو أجمل خطوط لغات الأرض كلها. واللغة العربية أجمل لغات الإنسان وحسبها جمالاً وشرفاً أن اختارها الله سبحانه وتعالى لغة الوحي ولغة القرآن الكريم ولغة النبوة الخاتمة.

والخط العربي هو وعاء الأدب فيزيده رونقاً وجمالاً فهو يحمل جميع العناصر الفنية ويضم جمالاً إلى جمال ورونقاً إلى رونق.

إنه فن رائع ملتصق باللغة العربية، غني بالبهاء والرواء، وقد يرى بعضهم أنه باب من أبواب الرسم. ولا شك أن له صلة بالرسم ولكنه باب متميز عن أي باب من أبواب الرسم الأخرى، ذلك لأن الخطاط لا يملك في يده غير القلم البسيط وهذا القلم مسطرته وهو قسطاسه الذي يعين به أحجام الحروف، فهذا القلم يقوم بأداء كل وظائف الآلات الأخرى التي يمتلكها الفنانون في سائر الفنون الأخرى.

فهو يتميز بوظيفته وطبيعته وارتباطه بأشرف لغة وأكرم أدب وكأنه أصبح بهذا الارتباط جزءاً من الأدب، وإذا لم يره بعضهم شكلاً من أشكال الأدب فهو باب من أبواب اللغة العربية، خاص باللغة ذاتها. فهو تاج الفنون الإسلامية ومركزها.. تزوج فيه المعاني بالأشكال وتآلف فيه الحكمة بالفن وتجمع فيه الفائدة بالجمال.

ويؤكد الشاعر الفنان خالد الفيصل بن عبد العزيز، أن أول ما يميز مسيرة الحرف العربي أنها رحلة وجدانية يستشعر المتتبع لها دفء الإيمان، وتوهج الرسالة وصدق الانتماء فالحروف ليست قطعاً جامدة ولكنها كائنات حية تنبض بمشاعر الفنان المسلم وتعكس إصراره وتقانيه لتحقيق أعلى درجات الإتقان والإحسان، فالحروف لا بد أن ترتقي إلى مستوى التعبير عن الرسالة، رسالة الخلاق البديع إلى الناس أجمعين.

فقد نقل عن خليفة رسول الله، عمر بن الخطاب. رضي الله عنه قوله: إن الرجل ليكلمني في الحاجة فأرده عنها وكأنني أقضم جبّ الرمان الحامض، لبغض استماع الحن، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب، فأجيبه إليها التذاذاً لما أسمع من كلامه.

ورد الوالي عبد الله بن طاهر، مظلمة أحدهم لأنها لم تستكمل نفسها في خط جميل وكتب:

/أردنا قبول عذرك فقطعنا دونه ما قابلنا من قبح خطك، ولو كنت صادقاً في اعتذارك لساعدتك حركة يدك، أو ما علمت أن حسن الخط يناضل عن صاحبه ويوضح الحجة ويمكنه من درك الغاية/.

والإمام الشيخ محمد عبده يقول: "إذا كان الرسم ضرباً من الشعر الذي يرى ولا يسمع، والشعر ضرباً من الرسم الذي يسمع ولا يرى، فالخط هو اليد الشاعرة التي تسمع وترى".

من هذه الشواهد يتضح لنا أن الأقلام نظام للأفهام، وكما أن اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان، ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت.

وقالوا: إن القلم أحد اللسانين، وهو المخاطب للعيون بسرائر القلوب، على لغات مختلفة، من معان معقودة بحروف معلومة مؤلفة مسموعة. ولا ألسن محدودة، ولا حركات ظاهرة، خلا قلم حرف باريه قطته ليتعلق المداد به، وأرهف جانبيه ليرد ما انتشر عنه إليه، وشق رأسه ليحتبس المداد عليه، فهناك استمد القلم بشقه ونثر في القرطاس بخطه حروفاً أحكمها التفكير، وجرى على أسلته الكلام الذي سده العقل، فلفظته الشفاه ووعته الأسماع من أنحاء شتى من صفات وأسماء.

يقول فيلسوف علم الاجتماع ابن خلدون: إن السمع أحد الأسس لتعلم اللغات. إذ عن طريقه ينغرس الحس اللغوي السليم ليصبح ملكة طبيعية في الإنسان، وسبيل ذلك غرس الإيقاع لدى المتعلم وذلك يحمل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استتبطها أهل صناعة البيان فإن هذه القوانين إنما تقيد علماً بذلك اللسان ولا يفيد حصول الملكة بالفعل في محلها".

فحين تروح العين تتأمل ذلك الانسياب العذب للخط التعليقي الفارسي، وكأنه سيل من ندى، أو تتأمل الخط الثلثي الذي ثبت على مر العصور كأحسن خط تزييني كأنه بحر لا حدود له من القوة والاحتشام والعظمة والكبرياء الذي ينطلق منه، أو تتأمل الخط الديواني، ذلك الإبداع السلس الذي يلتف على ذاته وكأنه يريد الرجوع إلى الدائرة حيث ولادته. حين يتم ذلك تتفتح أمامنا نافذة تطل على أفق بعيد، ويأخذنا التأمل إلى الداخل.. داخلنا نحن كبشر، وقد قالوا:

إن الخط توقيف من عند الله جلّ وعلا. واستفاد البشر منه لتركيب حروفه عن طريق العقل البشري.

وقد فسر هذه النظرية عمر بن عتبة بقوله /العقل عقلان/ عقل تفرّد الله بصنعه وهو الأصل. وعقل يستقيده المرء بأديه وهو الفرع، فإذا اجتمعاً قوّى كل منهما صاحبه، تقوية النار في الظلمة للبصر، واجتماع العقلين ألف عند الناس وأقرب للواقع فإنهم يبتغون دائماً تقوية العقل الموهوب، بما يكتسب من ممارسة واستفادة من تجربة وتكرار حصل علم الكتابة الذي نسميه الخط.

يقول الأستاذ محمد طاهر الكردي المكي في كتابه القيم. تاريخ الخط العربي وآدابه:

إن الخط ملكة تنضبط بها حركة الأتامل بالقلم على قواعد مخصوصة وهذه الملكة تنزّين بالتعليم وتقوى بالتمرين والاجتهاد. وليس كل خطاط قابلاً لأن يكون خطاطاً وإنما البعض دون البعض، إذ أنه من أدق الأشكال الهندسية. وحسن الخط كائن في بعض الأفراد كمون النار في الحجر، لما وهبه الله تعالى من الاستعداد الفطري. فإذا ما اشتغل به نبغ نبوغاً عظيماً من غير كبير عناء ومن لم يكن فيه هذا الاستعداد الفطري لتحسينه فلا يرجى له النبوغ والوصول إلى غايته، مهما بذل فيه من الجهد وصرف من الوقت، لكن قد ينال فيه قسطاً لا بأس به، إذ لكل مجتهد نصيب، ولكن نصيبه هذا لا يرفعه إلى الدرجة التي يصح أن يطلق عليه فيها لفظ /خطاط/.

أما الحداثة في الخط ليس جديداً، (كذا) فالتحديث هو قلب تربة التراث وغرس بذور جديدة محلية وعالمية ومبتكرة بحيث تتحلل العناصر الأليّة للفساد مع أن العناصر التي يترتب منها الخط العربي غير فاسدة ولا يمكن أن يتحول في يوم من الأيام إلى شيء ثانوي ولكن لشدة صعوبتها يلجأ بعض الإخوة الخطاطين إلى اختراع نماذج معينة باسم الحداثة، فتبقى أقل درجة من القواعد الأساسية المعروفة التي أرسى دعائمها خطاطونا الأسلاف.

وفي هذه المرحلة يتدخل الوعي البشري بالإرادة والتوجيه والانتقاء تدخلاً يهدف في النهاية إلى تحرير طاقات التفكير والتخييل والتعبير توصلاً إلى إبداع طريف وابتكار جديد جريء يتجاوزان مشارف الفن إلى الإنسان، بما هو فرد ومجتمع ومشروع حضاري ينمو بذاته، نحو بحر من الإبداع.

فالحداثة في الخط هي تجاوز وتوغل في شيء جديد يتم خلاله الاستفادة من الأشكال المستحدثة مما يجعل الخطاط يتلذذ ببعض الحرية بينما لا يمتلك القدر نفسه من الحرية والتجاوز فيما يختص بالالتزام بجوهر القواعد المنصوص عليها.

ونظراً لقابلية الحرف وطواعيتها فهي قادرة على أن تحتفظ بالجمالية مهما كانت صورتها، شريطة أن توفر الحرية الكاملة للحرف والاستقامة الموازية لبعض الحروف التي تشترك في الصورة والحجم. فقد قامت الكوفة بتحديث الصورة المربعة وابدعت فيها حتى عرفت بها، كما ساهمت في تحديث الخط الدائري الذي استعمل في التدوين العادي. وكان للبصرة خطها اللين ونافست فيه الكوفة. وانتقلت الحداثة بالخط إلى دمشق في عهد الأمويين. ونال الخط نصيباً من التحديث في شمال الشام وعرف به خط النسخ في صورته المعروفة لنا الآن.

وأول من اشتهر بحسن الخط من كتاب الدولة الأموية /قطبة المحرر/ وكان أكتب أهل زمانه وهو الذي بدأ بتحويل الخط العربي من الشكل الكوفي إلى الشكل الذي هو عليه الآن، وينسب إليه اختراع أربعة أقلام جديدة في مقدمتها القلم الجليل وقلم الطومار.

كما قام الخطاط التركي أحمد قره حصارى الذي ولد سنة ٨٧٣ هجرية، وهو تلميذ الخطاط أسد الله الكرمانى الذي سار على طريقة ياقوت المستعصمى ولكنه /وأعني الخطاط قره حصارى/ جمع بين قواعد شيوخه الذين أخذ منهم فاستنبط طريقة خطية خاصة به، تجمع ما اختلف فيه من الخصائص والطرق التي بدأ بها أولاً فاختلفت عن طريقة الشيخ حمد الله الأماسى بعض الشيء.

وقد تميّز هذا الخطاط بخطه الجلي وأخذ قلمه به وبرع في كتابته، وتشهد له آثاره الخطية بطول باعه وعلو منزلته، تمثلها كتاباته في جامع السلیمانية. قال عنه الموجودون الأتراك إنه يتبوأ المنزلّة الخامسة بين الخطاطين الأقطاب في تركيا. وفي متحف الآثار الإسلامية التركية مخطوط له مكتوب فيه سورة الأنعام على الصفحات الأولى مذهبة بخط الثلث الثقيل، وبعدها سورة بخط النسخ ومن ثمة سطور بخط الثلث الثقيل، ثم سطران بخط الثلث الخفيف، وفي متحف توب كابي مصحف آخر له. كتبه بخط المحقق والريحاني.

ومن ابتكارات الخطاط قره حصارى في مجال التحديث لصورة الخط كلمة (الحمد لولي الحمد) وسورة الإخلاص بالخط الكوفي البسيط، ثم البسلة بخط جلي مبتكر.

توفي رحمه الله سنة ٩٦٣ هجرية وقد ناهز التسعين وقد كتب شاهد قبره بيده دون أن يكتب تاريخ وفاته، إذ تركه إلى من بيده الأعمار علام الغيوب.

ويقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه، العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر ط٧ أن الخط العربي حدث له التطور والنمو في الحجاز نفسها، فقد كانت بها حياة تجارية مزدهرة جعلتهم يأخذون الخط المعيني أولاً ويتطورون به إلى خطوطهم اللحيانية والثمودية والصفوية، ثم لما ظهرت مملكة النبط واستخدمت الخط الآرامي وتطورت به، وتفرق أهلها بعد سقوطها في داخل الجزيرة العربية وعلى طول طريق القوافل التجارية نشروا قلمهم النبطي، فهاجر عرب الحجاز القلم المعيني وأخذوا يحاولون النفوذ من الخط النبطي إلى خطهم العربي الجديد مستحدثين به ضرورياً من التطور حتى أخذ شكله النهائي.

ومعنى هذا كله أن الخط العربي نشأ وتطور شمالي الحجاز وأنه لا يرجع في نشأته وتطوره إلى بلاد العراق، فالحجاز هو موطنه وهو الذي نشره في محيط العرب الشماليين على طول الدروب والطرق التي كانت تسلكها قوافل المكيين التجارية.

وفي الحجاز انطلقت حداثّة الكتابة العربية على مراحل، وفي مراكز متعددة. وذلك في عصر النبوة لشدة لزومها ولتدوين القرآن الكريم.

ومن الخطاطين الذين يملكون أرضية خصبة من الحداثّة، الأستاذ الشاعر محمد سعيد الصكار الذي يأتي في المقدمة، فهو الفنان الذي اخترق جدار الحداثّة باكتشافه التصوير الخاص لشخصيات الحروف فصنفها إلى شخصيات أليفة مترددة وأخرى مكابرة أو عدوانية، فأرسي قواعدها بشيء يقرب ما بينه وبين الخطاط التركي أحمد قره حصارى على الرغم من المسافة الزمنية التي تتجاوز ثلاثة قرون فيما بين الاثنين.

ويأتي على نمط تجربته الإبداعية في الحرف الأستاذ الخطاط رأفت حبش من المملكة العربية السعودية فهو يسير على نحو مطابق لا يختلف فيما بينهما إلا إمضاء التوقيع الأمر الذي يجعل الأستاذ الصكار في شيء من الضيق والخرج.

ومن سوربة الأستاذ الدكتور محمد غنوم الذي جعل من الحرف العربي سمفونية يتغنّى بها في أشكال

فريدة، ويحاول أيضاً تفجير الإمكانيات الجمالية الاحتياطية للحرف العربي ليكتشف الجديد، فاتخذ الحرف ملاذاً له في لوحاته التعبيرية وذلك من خلال حركة الخطوط وغازاتها على اللوحة مما أكسب الخط جغرافية شاسعة من الشرق فاتخذت من بلاد الغرب استراحة محارب، وتتميز لوحاته بنكهة خاصة لامتراجها بالأصالة والتراث مضافاً إليهما تلك الذاتية المبدعة التي يقول عنها جوته /بأن في كل فن صلة نسب، فإنك إذا رأيت فناً كبيراً فلا بد أنه وعى أحسن ما عند أسلافه وأن هذا هو الذي جعله عظيماً.

لذلك فالأستاذ محمد غنوم قدم إلى الخط العربي مكتبة زاخرة من نتاج الحرف العربي بلوحات ناطقة يحس لها النبض ارتعاشاً والنفس انتعاشاً وللعين موسيقى سرمدية تسحره وتنقله إلى شواطئ الإبداع والخيال الخصيب.

أما الخطاط منير الشعراني فإن حدائته ذات تجربة متفردة على الرغم مما يملكه الخط العربي من زخم هائل لأنواعه المتعددة يكتسب جمالية خاصة لكل نوع على حدة. إلا أنه متمسك بالخط السنبل الذي يوحى بالجمود والتحجر فيفتقر إلى جمالية الحرف من حيث الحبكة النفية ومع أن الأستاذ منير الشعراني يعتبر من التلاميذ المجدين لأشهر خطاطي بلاد الشام المرحوم بدوي الديراني، إلا أنه لم يرث من أستاذه تلك الجمالية الخاصة التي كان يتمتع بها.

ومن جمهورية مصر العربية الخطاط أحمد مصطفى الذي ينطلق من الحرف الساكن، من الكلمة الرمز الدالة على معنى معين إلى لوحة تحفل بالديناميكية وتكتظ بالتناقضات وتستدير وتتحنى ثم ترتفع ومعها المشاهد إلى أعلى، كأن الحروف على وشك القفز بلا انضباط، على وشك مغادرة اللوحة. وهو لا يقدم اللوحة على نحو مقروء وواضح، لأن ذلك سيحرمه متعة الغموض والإبداع، كما سيحرم المشاهد متعة الإحساس بين قطبي مبدع اللوحة والمشاهد، حيث يختفي الزمان والمكان وتبدأ رحلة اللانهاية، رحلة اللانهاية واللامكان.

فالأستاذ أحمد مصطفى ليس خطاطاً فقط، بل هو فنان يحاول أن يعيد إلى الفن الإسلامي، علاقة الود المفقودة بين القلم والريشة، ويطمح في الوقت نفسه أن يجمع بين اللوحة والموسيقى مستنداً إلى أن الموسيقى هي أعلى أنواع التجريد، واللوحة التجريدية هي خطوة للاقتراب منها، وجمالية الخط العربي وربطه بالموسيقى ليس جديداً، وإنما الجديد أن نجد من يواصل الطريق باحثاً ودارساً لمدة تزيد على الأربعة عشر عاماً، قرأ مرة، وبالمصادفة، كلاماً لابن مقلة يعود تاريخه إلى عام ٩٠٠ م، وابن مقلة كما هو معروف كان خطاطاً وعالماً توصل إلى طريقة جديدة في الكتابة أطلق عليها اسم /الخط المنسوب/ فحدث تلك المصادفة /أحمد مصطفى/ إلى مواصلة بحثه ليستنتج بعد ذلك أن فهم النص العربي أقل أهمية من التأثير البصري الناتج، بل وصار يعتقد بأن العين الغربية أقدر على التمتع بأعماله، لأن الأجانب لا يبحثون عن معنى الكلمات ولا يحاولون قراءة الحروف.

ويؤكد الأستاذ أحمد مصطفى أن العلاقة وشيجة بين الحروف المتوازية أو المتداخلة أو المبعثرة من جهة والشكل النهائي المقصود بألوانه من جهة ثانية.

فاللوحة في النهاية... دراسة خطية وهندسية غنية بإيقاع داخلي لا يلتقطه إلا من يريد من الرائيين.

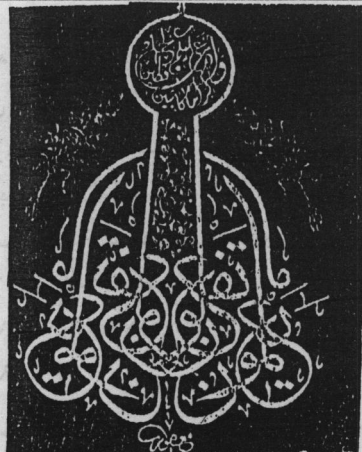
وهناك رأي في فن الخط العربي للمؤلفين المغربيين صاحب كتاب /ديوان الخط العربي/ وقصة الحضارة العربية في حروف جميلة، وهما: عبد الكريم الخطيب، الأستاذ الباحث في جامعة الرباط ومؤلف



البسمة بخط "الفارسي"
للخطاط عكلة الحمد
- سورية -



وأحسن كما أجسن الله إليك
/ قرآن كريم /
بخط الثلث الجلي
لأشخص خطاطي بلاد الشام
المرحوم بدوي الديراني



يعلمون ما تفعلون / قرآن كريم /
بخط ثلث جلي متناظر
للخطاط كاتب المقال سورية.

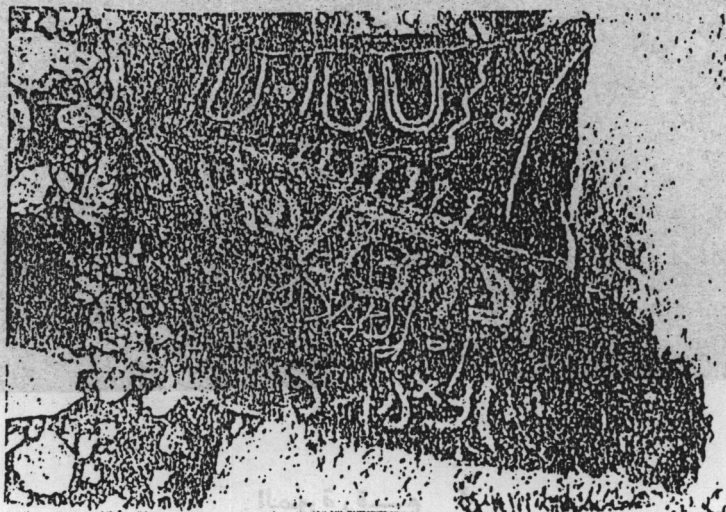


نصر من الله وفتح قريب

/ قرآن كريم /

خط الديراني

محمد سعد حداد / مصر /



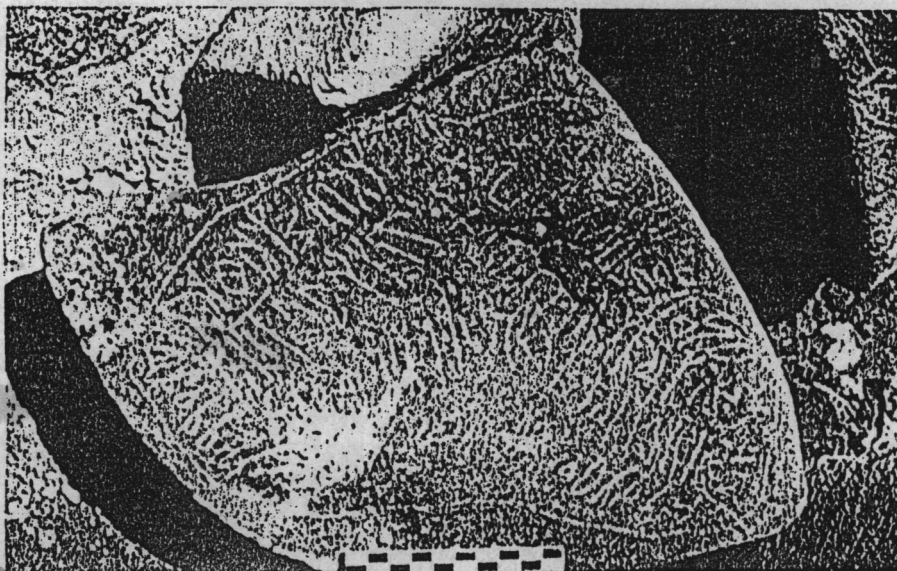
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

الصورة رقم "١٠"

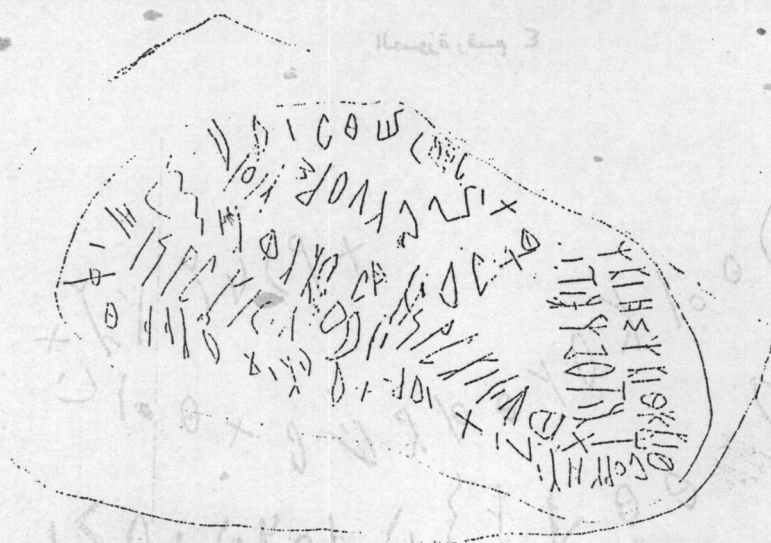


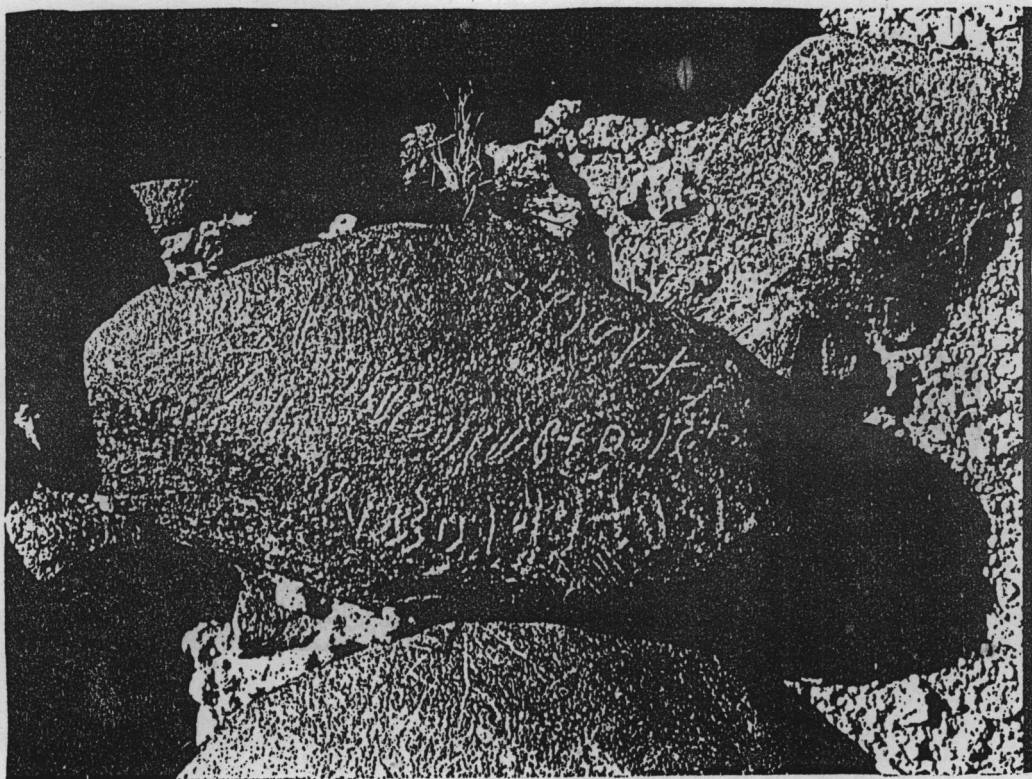
الصورة رقم ٢

١٨٠١
٢٠٢٧



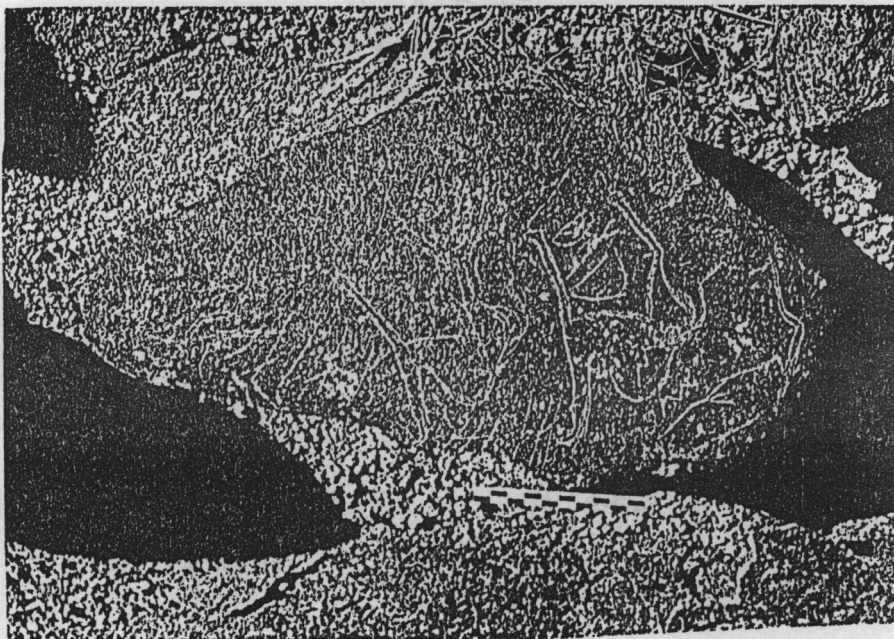
الصورة رقم " ٣ "



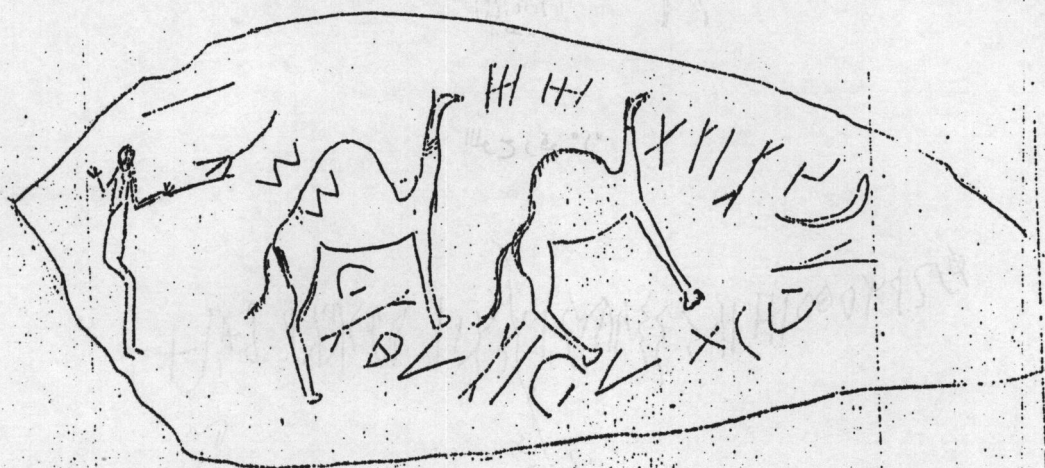


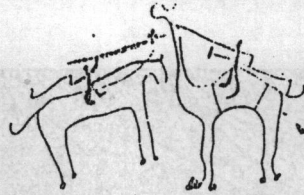
الصورة رقم ٤

Handwritten text in Arabic script, likely a transcription of the inscriptions on the rock shown in the image above. The text is arranged in several lines and includes various symbols and characters, some of which are enclosed in circles or other markings.

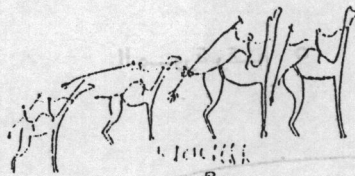


المصورة رقم ٥

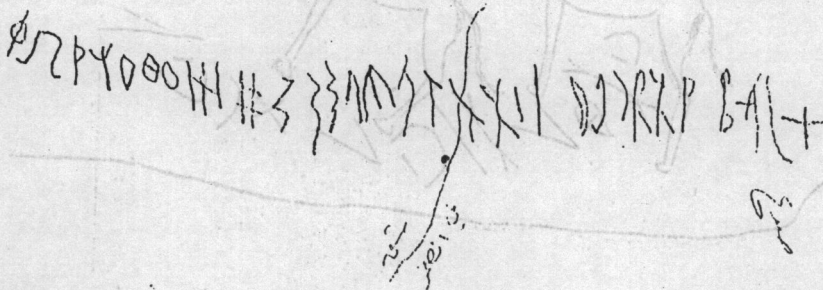




- ١ -



اللوحة رقم "١"



اللوحة رقم "٢"